٣ ـ المشكلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أما البقية من هذه الآراء التي تلقيتها فكل أصحابها متوافقون على مثل الرأي الواحد من وجوب إمساك الزوجة والاقبال عليها، وإرسال « تلك » والانصراف عنها، وأن يكون للرجل في ذلك عزمٌ لا يتقلقل ومضاء لا ينثني، وأن يصبر للنفرة حتى يستأنس منها فانها ستتحول، ويجعل الأناةَ بازاء الضجر فانها تصلحه، والمروءةَ بازاء الكره فانها تحمله، وليترك الأيام تعمل عملها فانه الآن يعترضُ هذا العمل ويعطله، وإن الأيام إذا عملت فستغير وتبدّل، ولا يُستقَلُّ القليلُ تكون الأيامُ معه ولا يُستكثر الكثيرُ تكون الأيامُ عليه

والعديدُ الأكبر ممن كتبوا إليّ يحفظون على صاحب المشكلة ذلك البيانَ الذي وضعناه على لسانه في المقال الأول ويحاسبونه به ويقيمون منه الحجةَ عليه، ويقولون له أنت اعترفت، وأنت أنكرت، وأنت رددت على نفسك، وأنت نصبتَ الميزان فكيف لا تقبل الوزن به؟ وقد غفلوا عن أن المقال من كلامنا نحن وأن ذلك أسلوبٌ من القول أدرناه ونحلناه ذلك الشابَّ ليكون فيه الاعتراضُ وجوابُه، والخطأ والرد عليه، ولنُظهر به الرجلَ كالأبله في حيرته ومشكلته تنفيرا لغيره عن مثل موقفه، ثم لنحرك به العللَ الباطنةَ في نفسه هو فنصرفه عن الهوى شيئاً فشيئاً إلى الرأي شيئاً فشيئاً، حتى إذا قرأ قصةَ نفسه قرأها بتعبير من قلبه وتعبير آخر من العقل، وتلمح ما خفي عليه فيما ظهر له، واهتدى من التقييد إلى سبيل الاطلاق، وعرف كيف يخلّص بين الواجب والحب اللذين اختلطا عليه وامتزجا له امتزاجَ الماء والخمر. وبذلك الأسلوب جاءت المشكلة معقدةً منحلةً في لسان صاحبها، وبقي أن يُدفع صاحبها بكلام آخر إلى موضع الرأي

وكثير من الكتاب لم يزيدوا على أن نبهوا الرجل إلى حق زوجته ثم يدعون الله أن يرزقه عقلاً . . . وقد أصاب هؤلاء أحسن التوفيق فيما ألهموا من هذه الدعوة، فانما جاءت المشكلة من أن الرجل قد فقد التمييز وجُنّ بجنونين: أحدهما في الداخل من عقله والثاني في الخارج منه، فأصبح لا يبالي الاثمَ والبغض عند زوجته إذا هو أصاب الحظوةَ والسرور عند الأخرى؛ فتعدّى طوره مع المرأتين جميعاً، وظلم الزوجة بأن استلب حقها فيه، وظلم الأخرى بأن زادها ذلك الحق فجعلها كالسارقة والمعتدية

وقد تمنى أحد القراء من فلسطين [1] أن يرزقه الله مثل هذه الزوجة المكروهة كراهة حب، ويضعَه موضعَ صاحب المشكلة ليثبت أنه رجل يحكم الكره ويصرّفه على ما يشاء ولا يرضى أن يحكمه الحب وإن كان هو الحب. وهذا رأي حصيف جيد فان العاشق الذي يتلمّس الحب به ويصده عن زوجته لا يكون رجلا صحيح الرجولة، بل هو أسخف الأمثلة في الأزواج، بل هو مجرم أخلاقي ينصب لزوجته من نفسه مثالَ العاهر الفاسق ليدفعها إلى الدعارة والفسق من حيث يدري أو لا يدري؛ بل هو غبيّ إذ لا يعرف أن انفراد زوجته وتراجُمَها إلى نفسها الحزينة ينشىء في نفسها الحنين إلى رجل آخر؛ بل هو مغفل إذ لا يدرك أن شريعة السن بالسن والعين بالعين، هي بنفسها عند المرأة شريعة الرجل بالرجل . . . . . .

والمرأة التي تجد من زوجها الكراهيةَ لا تعرفها أنها الكراهةُ إلا أوّلَ أول؛ ثم تنظر فاذا الكراهة هي احتقارُها واهانتها في أخص خصائصها النسوية، ثم تنظر فاذا هي إثارة كبريائها وتحديها، ثم تنظر فاذا هي دفعُ غريزتها أن تعمل على اثبات أنها جديرة بالحب، وأنها قادرة على النقمة والمجازاة، ثم تنظر فاذا برهان كل ذلك لا يجيء من عقل ولا منطق ولا فضيلة، وانما يأتي من رجل ..... رجل يحقق لها هي أن زوجها مغفل وأنها جديرة بالحب

* * *

وكأن هذا المعنى هو الذي أشارت اليه الأديبة ف . ز . وإن كانت لم تبسطه، فقد قالت: وإن صاحب هذه المشكلة غبي، ولا يكون إلا رجلا مريض النفس مريض الخلُق، وما رأيت مثله رجلا أبعد من الرجل ... ومثلُ هذا هو في نفسه مشكلة

(١) هذه الآراء التي سننقلها قد تصرفنا في جميعها بالعبارة، ولكنا لم نخرج عما يرمي إليه صاحب الرأي وما أقام رأيه عليه

فكيف تُحل مشكلته ؟ إنه من ناحية زوجته مغفل لا وصف له عندها إلا هذا ؛ ومن جهة حبيبته خائن والخيانة أول أوصافه عندها

وهذا الزوج يسمم الآن أخلاق زوجته ويفسد طباعها ، وينشئ لها قصةً في أولها غباوته وإثمه ، وسيتركها تتمُّ الرواية فلا يعلم إلا الله ما يكون آخرها . ومثل هذا الرجل أصبح المتعلمات يعتقدن أن أكثر الشبان إن لم يكونوا جميعاً — هم كاذبون في ادعاء الحب ، فليس منهم إلا الغواية ؛ أو هم محبون يكذب الأمل بهم على النساء ، فليس منهم إلا الخيبة

قالت : وخير ما تفعله صاحبةُ المشكلة أن تصنع ما صنعته أخرى لها مثلُ قصتها ، فهذه حين علمت بزواج صاحبها قذفت به من طريق آمالها الى الطريق الذي جاء منه ، وأنزلته من درجة أنه كلُّ الناس إلى منزلة أنه ككل الناس ، ونبهت حزمَها وعزيمتها وكبرياءها فرأته بعد ذلك أهون على نفسها من أن يكون سبباً لشقاء أو حسرة أو هم ، وابتعدت بفضائلها عن طريق الحب الذي تعرف أنه لا يستقيم إلا لزوجة وزوجها ، فإذا مشت فيه امرأة إلى غير زواج ، انحرف بها من هنا ، واعوجَّ لها من هنا ، فلم ينته بها في الغاية إلا أن تعود إلى نفسها وعليها غبارُه ، وما غبار هذا الطريق إلا سواد وجه المرأة .....

وقد جهد الرجل بصاحبته أن تتخذه صديقاً ، فأبت أن تتقبل منه برهان خيبتها . . . وأظهرت له جفوة فيها احتقار ، وأعلمته أن نكث العهد لا يخرج منه عهده ، وأن الصداقة إذا بدأت من آخر الحب تغير اسمها وروحها ومعناها ، فاما أن تكون حينئذ أسقط ما في الحب ، أو أكذب ما في الصداقة

ثم قالت الأديبة : وهي كانت تحبه ، بل كانت مستهامة به ، غير أنها كانت أيضاً طاهرة القلب ، لا ترى في الحبيب رجلا هو رجل الحيلة عليها فتُخدع به ، ولا رجل العار فتسبُّ به ، وفي طهارة المرأة جزاء نفسها من قوة الثقة والاطمئنان وحسن التمكن ؛ وهذا القلب الطاهر إذا فقد الحب لم يفقد الطُمأنينة ، كالتاجر الحاذق إن خسر الربح لم يفلس ، لأن مهارته من بعض خصائصها القدرة على الاحتمال والصبرُ للمجاهدة

قالت : فعلى صاحبة المشكلة التي عرفت كيف تحب وتجلُّ أن تعرف الآن كيف تحتقر وتزدري

* * *

وللأديبة ف . ع رأي جزلٌ مسدَّد ؛ قالت : إنها هي قد كانت يوما بالموضع الذي فيه صاحبة المشكلة ، فلما وقعت الواقعة أنفت أن تكون لعبة قلوب ، وقالت في نفسها : إذا لم يُقدر لي ، فان الله هو الذي أراد ، وإني أستحي من الله أن أحارب في هذه الزوجة المسكينة ، ولئن كنت قادرةً على الفوز إن انتصاري عليها عند حبيبي هو انتصارها على عند ربي ، فلأخسر هذا الحب لأرابحَ الله برأس مال عزيز خسرته من أجله ، ولأبقِ على أخلاق الرجل ليبقى رجلاً لامرأته فما يسرني أن أنال الدنيا كلها وأهدم بيتاً على قلب ، ولا معنى لحب سيكون فيه اللؤم بل سيكون ألأم اللؤم .

قالت : وعلمتُ أن الله تعالى قد جعلني أنا السعادة والشقاء في هذا الوضع ليرى كيف أصنع ، وأيقنت أن ليس بين هذين الضدين إلا حكمتي أو حمقي ، وصحَّ عندي أن حسن المداخلة في هذه المشكلة هو الحل الحقيق للمشكلة

قالت : فتغيرت لصاحبي تغيراً صناعياً ، وكانت نيتي له هي أكبر أعواني عليه ، فما لبث هذا الانقلابُ أن صار طبيعياً بعد قليل . وكنت أستمد من قلب امرأته إذا اختانني الضعف أو نالني الجزع فأشعر أن لي قوة قلبين . وزدت على ذلك النصح لصاحبي نصحاً مُيسَّراً قائماً على الاقناع وإثارة النخوة فيه وتبصيره بواجبات الرجل ، وترفقتُ في التوصل إلى ضميره لأثبت له أن عزة الوفاء لا تكون بالخيانة ، وبينت له أنه إذا طلَّق زوجته من أجلي فما يصنع أكثر من أن يقيم البرهان على أنه لا يصلح لي زوجاً . ثم دلَلْتُه برفق على أن خير ما يصنع وخير ما هو صانع لارضائي أن يقلدني في الايثار وكرم النفس ويحتذيني في الخير والفضيلة ، وأن يعتقد أن دموع المظلومين هي في أعينهم دموع ، ولكنها في يد الله صواعق يضرب بها الظالم

قالت : وبهذا وبعد هذا انقلب حبه لي إكباراً وإعظاما وسما فوق أن يكون حباً كالحب ؛ وصار يجدني في ذات نفسه وفي ضميره كالتوبيخ له كلما أراد بامرأته سوءا أو حاول أن يغض منها في نفسه . واعتاد أن يكرمها فأكرمها ، وصلحت لها نيته فاتصل بينهما

السبب ، وكبرت هذه النيةُ الطيبة فصارت ودا ، وكبر هذا الود فعاد حباً ، وقامت حياتهما على الأساس الذى وضعته أنا بيدى ، أنا بيدى ......

أما أنا ... ؟

* * *

وكتب فاضل من حلوان : إن له صديقا ابتلى بمثل هـذه المشكلة فركب رأسه فما ردَّه شيء . عمد الزواج بحبيبته ، وزُفَّ اليها كأنه ملك يدخل إلى قصر خياله ، وكأن أهله يعذلونه ويلومونه ويُخلصون له النُّصح ويجتهدون فى أمره جهدهم ، إذ يرون بأعينهم مالا يرى بعينـه ، فـكان النصح ينتهى اليه فيظنه غشاً وتلبيساً ، وكان اللوم يبلغه فيراه ظلماً وتحاملاً ؛ وكان قلبه يترجم له كل كلمة فى حبيبته بمعنى منها هى لا من الحقائق ، إذ غلبت على عقله فيها يعقل ، وذهبت بقلبه فيما يحس ، واستبدت بإرادته فما ينقاد ؛ وعادت خواطره وأفـكاره تدور عليها كالحواشي على العبارة المغلقة فى كتاب ؛ واستقرَّت له فيها قوة من الحب أمرها إذا أرادت شيئاً أن تقول له كن ...

ثم مضت الليلة بعد الليلة وجاء اليوم بعد اليوم والموج يأخذ من الساحل الذرَّة بعد الذرة والساحل لا يشعر ، إلى أن تصرمت أشهر قليلة فلم تلبث الطبيعة التى ألفت الرواية وجعلتها قبل الزواج رواية الملك والملـكة، وقصة التاج والعرش ، وحديث الدنيا وملك الدنيا — لم تلبث أن انتقلت على فجأة فأدارت الرواية إلى فصل السخرية ومنظر التهكم ، وكشفت عن غرضها الخفى وحلت العقدة

قال : ففرغ قلبُ المرأة من الحب وظمئ إلى السُّـكر والنشوة مرة أخرى من غير هذه الزجاجة الفارغة .... وبَرَدَ قلب الرجل وكان الشيطان الذى يتسعَّر فيه ناراً ، شيطاناً خبيثاً فتحول إلى لوح من الثلج له طول وعرض . . . .

وَجِدَّت الحياة وهَزَل الشيطان ، فاستحمق الرجلُ نفسه أن يكون اختار هذه المرأة له زوجة ، واستجهلت المرأةُ عقلَها أن تكون قد رضيت هذا الرجل زوجاً ، وأنكرها إنكارا أوله الملالة ، وأنكرته إنكارا آخر أوله التبرُّم ؛ وعاد كلاهما من صاحبه كانسان يكلف إنساناً أن يخلق له الأمس الذى مضى

وضربت الحياةُ ضربةً أو ضربتين فاذا أبنيةُ الخيال كلها هَدْمٌ هَدْم ، وإذا الطبيعة مؤلِّفةُ الرواية . . . . قد ختمت روايتها وقوضت المسرح ، وإذا الأحلام مفسرة بالعكس ، فالحب تأويله البغض ، واللذة تفسيرها الألم ، و « البودرة » معناها الجير . . . . وتغير كل ما بينهما إلا الشيطان الذى بينهما ، فهو الذى زوَّج وهو بعينه الذى طلَّق . . . .

* * *

وكتب أديب من بغداد يقول : إنه كان فى هذا الوضع القَلِق موضع صاحب المشـكلة ، وأن ذات قرباه التى سميت عليه كانت ملفَّفَة له فى حُجُب عدَّة لا فى حجاب واحد ، وقد وصِفتْ له باللغة . . . . وفى اللغة ما أحسنْ وما أجمل وما أظرف ، وكأنها ظبي يتلفت ، وكأنها غصن يميل ، وكأن سنَّةَ وجهها البدر !

قال : وشبهت له بكل أدوات التشبيه وجاءوا فى أوصافها بمذاهب الاسـتعارة والمجاز ، فأخذها قصيدة قبل أن يأخذها امرأة . وكان لم يرَ منها شيئا وكانت لغة ذوى قرابته وقرابتها كلغة التجارة فى ألسنة حذَّاق السماسرة ، ما بهم إلا تَنْفِيقُ السِّلعة ثم يُخَلون بين المشترى وحظِّه

قال : فرسخ كلامهم فى قلبى ، فعقدت عليها ، ثم أعرست بها ونظرت فاذا هى ليست فى الـكلمة الأولى ولا الأخيرة مما قالوا ولا فيما بينهما . . . . ثم تعرفت فاذا هى تكبرنى بخمس عشرة سنة . . . . . ورأيت انضاع حالها عندى فأشفقت عليها ، وبت الليلة الأولى مقبلا على نفسى أؤامرها وأناجيها وأنظر فى أى موضع رأيى أنا . وتأملت القصـة فاذا امرأة بين رحمة الله ورحمتى ، فقلت إن أنا نزعت رحمتى عنها ليُوشكنَّ الله أن ينزعْ رحمته عنى ، وما بينى وبينه إلا أعمالى ؛ وقلت بانفسى : « إنها إن تكُ مِثقالَ حبةٍ من خَرْدَلٍ فتكنْ فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأتِ بها الله » . وإنما أتقدم إلى عفو الله بآثام وذنوب وغلطات ، فلأجعل هذه المرأةُ حسنتى عنده ، وما علىَّ من عمر سيمضى وتبقى منه هذه الحسنةُ خالدةً مخلَّدة

إنها كانت حاجةَ النفس إلى المتاع فانقلبت حاجةً إلى الثواب ، وكانت شهوةً فرجعت حكمة ، وكنت أريد أن أبلغ

ماأحب فسأبلغ مايجب . ثم قلت : اللهمّ إن هذه امرأة تنتظرها ألسنةُ الناس إما بالخير إذا أمسكتها ، وإما بالشر إذا طلقتها ، وقد احتمتْ بي ؛ اللهمّ سأكفيها كلّ هذا لوجهك الكريم

قال : رأيتُني أكون ألأمَ الناس لو أني كشفتُها للناس وقلت انظروا . . . فكأنما كنت أسأتُ اليها فأقبلت أترضّاها ، وجعلتُ أمسحها وألاينُها فى القول وعدلتُ عن حظ نفسى إلى حظ نفسها[1] ، واستظهرتُ بقوله تعالى: «وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً» ؛ واعتقدتُ الآيةَ الكريمةَ أصحَّ اعتقادٍ وأتمه ، وقلت اللهمّ اجعلها من تفسيرها

قال : فلم تمض أشهر حتى ظهر الحملُ عليها ، فألقى الله فى نفسى من الفرح ما لا تمثله الدنيا بحذافيرها ، وأحسستُ لها الحبَّ الذى لا يقال فيه جميل ولا قبيح لأنه من ناحية النفس الجديدة التى فى نفسها (الطفل) . وجعلتُ أرى لها فى قلبى كل يوم مداخلَ ومخارج دونها المشقُ فى كل مداخله ومخارجه ، وصار الجنين الذى فى بطنها يتلألأ نورُه عليها قبل أن يخرج إلى النور ، وأصبحت الأيام معها ربحاً من الزمن فيه الأملُ الحلوُ المنتظر

قال : وجاءها المخاض ، وطرقتْ بغلام ؛ وسمعتُ الأصوات ترتفع من حجرتها : ولد ! ولد ! فبشّروا أباه . فوالله لكأن ساعةً من ساعات الخلد وقعت فى زمنى أنا من دون الخلق جميعاً وجاءتني بكل نعيم الجنة . وما كان ملك العالم — لو ملكته — مستطيعاً أن يهبني ما وهبتني امرأتى من فرح تلك الساعة . إنه فرح إلهى أحسستُ بقلبى أن فيه سلام الله ورحمته وبركته . ومن يومئذ نطق لسانُ جمالها فى صوت هذا الطفل . ثم جاء أخوه فى العام الثانى ، ثم جاء أخوها فى العام الثالث ؛ وعرفتُ بركةَ الاحسان من اللطف الربّانى فى حوادث كثيرة وتنفستْ على أنفاس الجنة وفسرت الآية الكريمة نفسها بهؤلاء الأولاد ، فكان تفسيرها الأفراح ، والأفراح ، والأفراح

* * *

ويرى صديقنا الأستاذ محمد حسين جيره ، أن صاحب المشكلة فى مشكلة من رجولته لا من حبه ؛ فلو أن له ألف روح لما استطاع أن يعاشر زوجته بواحدة منها إذ هى كلها أرواح صبيانية تبكى على قطعة من الحلوى ممثلة فى الحبيبة . . . . ولو عرف هذا الرجل فلسفة الحب والكره لعرف أنه يصنع دموعه بإحساسه الطفلى فى هذه المشكلة ؛ ولو أدرك شيئاً لأدرك أن الفاصل بين الحب والكره منزوع من نفسه ، إذ الفاصل فى الرجل هو الحزم الذى يوضع بين ما يجب وما لا يجب

إنه ما دام بهذه النفس الصغيرة فكل حل لمشكلته هو مشكلة جديدة ، ومثله بلاء على الزوجة والحبيبة معاً ، وكلتاهما بلاء عليه ، وهو بهذه وهذه كمحكوم عليه أن يشنق بامرأة لا بمشنقة . . .

هذا عندى ليس بالرجل ولا بالطفل إلى أن يُثبت أنه أحدهما ، فان كان طفلا فمن السخرية به أن يكون متزوجاً ، وإن كان رجلا فليحل هو المشكلة بنفسه ؛ وحلُّها أيسر شىء : حلها تغييرُ حالته العقلية

* * *

ونحن نعتذر للباقين من الأدباء والفضلاء الذين لم نذكر آراءهم ، إذ كان الغرض من الاستفتاء أن نظفر بالأحوال التى تشبه هذه الحادثة لا بالآراء والمواعظ والنصائح . أما رأينا فى البقية الآتية

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

(حاشية) : تمثل فى نفسى وأنا أبيض هذه المقالة أنها ستثير فى نفس إحدى قارئاتها موضعاً ذا شأن وخطر ، وأن هذه القارئة ستتردد فى الكتابة إلى والافضاء بمناها . وقوى ذلك فى الخاطر حتى كأنه واقع فما هو ذلك الشأن يا ترى ؟ ان سطراً صغيراً فيه شىء من حكمة الدنيا قد تكون فيه مقالات فلا يبخلن أحد على أحد الرافعى

البدائع (الطبعة الثانية)

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

للدكتور زكى مبارك

صوّر فيه كثيراً من رجال الأدب العربى أمثال : الشيخ المهدى ، المرصفى ، شوقى ، حافظ ، لطفى السيد ، السباعى ، وغيرهم من مشاهير وعظماء الرجال وهو من أحسن المؤلفات فى الأدب العربى

طبع للمرة الثانية فى جزئين ثمنهما ٢٠ قرشاً صاغا ويطلب من المكتبة المحمودية بالأزهر ص . ب (٥٠٥) مصر

(١) استوفينا بيان هذه المعانى فى مقالة (قبح جميل) من مقالاتنا فى (الرسالة)